

سفينة نوح هي الخلافة في زمن التقلبات السياسية

لم تكن سفينة نوح عليه السلام مجرد ألواح ومسامير، بل كانت موقفاً قبل أن تكون وسيلة نجاة. وحين كان نوح عليه السلام يبني سفينته، لم يكن الطوفان قد بدأ بعد، لكن الانقسام كان قد وقع؛ فريق يسخر، وفريق متعدد، وقلة فقط اختارت الركوب قبل أن ترى الماء.

اليوم، يتكرر المشهد لكن بسميات أخرى، ووسائل مختلفة، وطوفان أشد خداعا. والأحداث السياسية تتسرّع كأمواج متلاحقة، والمواقف تتبدل، والخطاب يتلون حسب المصالح، وحملة الدعوة يُتهمون بالتهور حيناً، وبالبطء حيناً آخر، ويطلب منهم أن ينتظروا، أو يهادنو، أو يركبوا الموجة حتى تتضح الصورة.

اليوم تفتح الأبواب للعدو باسم "السلام"، وتزين الخيانة بعبارات المصالح، ويطلب من حملة الدعوة أن يكونوا واقعيين، وأن يتفهموا المرحلة، وأن لا يرفعوا صوتهم عالياً، لكن الحق لا يعرف لغة التدرج حين يكون التنازل عن أصل لا عن فرع.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾، فالرّكون ليس مشاركة في الجريمة، بل تبرير وتطبيل وسكت. اليوم سفينة نوح في زمننا هي الموقف الواضح من العدو، هي الثبات على الحق، هي البراءة من مشروع الغرب ورفض الاعتراف بشرعية الاحتلال، وعدم الانخداع بشعارات السلام الاقتصادي والاستقرار الإقليمي.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أُولَئِكَ﴾ فالولاية ليست توقيع اتفاقية فحسب، بل مشاركة في مشروع، وتبرير للرواية، وتنازل عن جوهر الصراع.

سفينة نوح في واقعنا مشروع حق واضح المعالم: موقف لا يساوم، ومنهج لا يقبل التدرج، ولا الموالاة، ولا الدخول في مظلة الرأسمالية، بل كيان قائم بذاته، لا يقبل أنصاف الحلول، ولا يقبل بحلول خارج نطاق حكم الله وشرعه. ومن رفض الركوب بحجّة الواقعية السياسية، أو خاف من الغرب، أو راهن على كراسى مؤقتة، وجد نفسه لاحقاً وسط الطوفان بلا مركب. فهل نفعت القرابة حين جاء الطوفان؟ أم أن الله نفى عنها صفة القرابة؟ فالسخرية من أهل الحق ودعوّهم، والاعتصام بغير قوة الله، والوقوف موقف المتفرج، مخرجات من الإيمان، بل لم ينج إلا من ركب، لا من سخر، ولا من اغتر بقوته.

ومع الأسف نرى اليوم كثيرين اختاروا جبال الغرب: جبل الاقتصاد، جبل الحماية الدولية، جبل الواقعية السياسية... لكن الله قال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ ولن ينجو من طوفان الفتنة، والتنازلات، والتضليل الإعلامي، إلا من ركب سفينة الحق مبكراً، وتحمّل ثقل الطريق، وصبر على أذى السارقين، ورفض أن يقف في المنطقة الرمادية.

فالطوفان قادم، ومن اختار قوة الغرب لا قوة الله، أو تسلق جبل المصالح، سيكتشف متأخراً أنه الخاسر لأن سفينة نوح تسير إلى النجاة الجماعية تحت راية الحق، بينما الطوفان السياسي لا يرحم المتردد़ين، ولا المنافقين ولا المطلبين لأن في عالم السياسة اليوم النجاة فردية.

الطفوفان قادم لا محالة؛ طوفان كشف، وطفوفان حساب، وطفوفان سقوط الأقنعة، وحينها لن يسأل الناس: هل كنتم تحسنون الظن؟ بل أين وقتم؟ ومع من اصطففتم؟ ولمن برتم؟ ولماذا طبّلت؟

سفينة نوح عليه السلام ليست مجرد وسيلة نجاة من بحر هائج، بل كانت كياناً جاماً، وقيادة واحدة، ووجهة واضحة، وفق منهج الله الذي لا يخضع للتدريج ولا للمصالح، ولهذا لم ينقد الله الناس أفراداً متفرقين، بل أنقذهم بسفينة.

والاليوم تتجلّى الحكمة ذاتها: فالنجاة لا تكون بعواقب فردية، ولا ببيانات خداعية، وشعارات مزيفة، إنما تكون بكيان جامع يمثل الإسلام في الحكم والسياسة، تماماً كما مثلت سفينة نوح مشروع النجاة الوحيد في زمن الطوفان.

نعم إنما سفينة الخلافة؛ هي سفينة هذا الزمان، ليست شعاراً عاطفياً، بل نظام حكم، وراية واحدة، دولة تتبنى قضايا الأمة لا تفاوض عليها.

قال الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فالسفينة لم تُبن بجهد بشري خالص، بل بروحٍ ومنهجٍ وكذلك الخلافة لا تقام بالأهواء، ولا تدار بمنطق الواقعية السياسية، بل بمنهج رباني كامل. الخلافة، كالسفينة، لا تتسع للحياد، فإذا ركوب كامل، أو بقاء في طوفان التبعية والذل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالولاية ليست تحالفات دولية، ولا اتفاقيات أمنية، بل نظام حكم وفق منهج الله ورسوله. وكما لم تنقد قرابة ابن نوح، ولا حسن ظنه بالجبل، لن تنقد اليوم اتفاقيات التطبيع، ولا مشاريع السلام، ولا جبال الاقتصاد والدعم الدولي.

قال تعالى على لسان نوح: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، والرحمة اليوم ليست في الاندماج في النظام العالمي الرأسمالي، بل في ركوب سفينة الخلافة، قبل أن يجرف الطوفان كل من ظن أن بإمكانه النجاة خارجها، فالطوفان ليس ماء هذه المرة، بل تطبيع، وتفكيك، وعداء للدين... .

فالخلافة ليست اختراعاً لا واقع له، بل هي الامتداد السياسي الطبيعي للنبوة في إدارة شؤون الأمة، وحفظ دينها، وصيانتها مواقفها من العدو، كما أن نوحًا لم يساوم الطوفان، ولم يعقد هدنة مع الماء، ولم يقبل سلاماً مؤقتاً مع الغرق. فإن الخلافة كسفينة نوح لا تتعايش مع التطبيع ولا مع الغرب ومنظومته الرأسمالية، لأنها قائمة

على أصل: الولاء لله، والبراءة من الكفر، وحمل الدعوة إلى العالم. ولا نجاة إلا بسفينة واحدة بقيادة إمام عادل يقودها إلى بر الأمان.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِمَامَ جُنَاحٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَىْ بِهِ»، فالمأمور، أي الخليفة، ليس لقباً يتغنى به، بل درعٌ واقٍ للأمة، كما كانت السفينة درعاً من الطوفان من الهلاك، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَسْتَقِمْ فِي عُقُولِهِ بَيْعَةً، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، وهذا نص خطير الدلالة: إذ يربط ﷺ النجاة من الجahiliyyah بوجود بيعة لقيادة عامة، لا بمشاعر إيمانية، كما أن الإيمان بنوح لم يكن كافياً دون ركوب السفينة، وقال ﷺ: «فَإِنَّمَا جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». لم يقل: الزم رأيك، ولا اعزز الواقع، ولا ساير الأقوى... بل جماعة تحت قيادة إمام، أي خليفة، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسْوُسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلُّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيٌّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ حُلْفَاءُ فِي كُثُرٍ».

و بما أن السفينة لا تحتاج إلا قائداً واحداً، فإن رسول الله يبين لنا بقوله ﷺ: «إِذَا بُويعَ خَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا» وهو حديث يبين خطورة تفتت القيادة، لأن السفن المتعددة في الطوفان تعني الغرق، فكما لم ينقد الله أقرب الناس لنوح خارج السفينة، لن تنقد الأمة اليوم أصدقُ الشعارات دون الخلافة بقيادة خليفة عادل، فالنجاة ليست عبادة صوم وصلوة فقط، بل العمل على الدعوة لإقامة الخلافة الراشدة.

الخلافة ليست خياراً بين خيارات، بل هي فرض وضرورة ونجاة. ومن ظن أن بإمكانه النجاة بالحياد، أو بالصمت، أو بالمساومة، سيكتشف متاحراً أن الطوفان لا يعترف بالمنطقة الرمادية ولا بالطريقة التدريجية، ولا يؤمن بفقه الواقع.

فطوبى لمن كان من صنّاعها، ولمن ركبها عن وعي، وصبر على أذى الساخرين، وثبت حين طبل ونافق الجميع؛ لأن السفينة واحدة، والطوفان واحد، والنجاة لا تكون إلا بها.

كتبه للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

منال أم عبيدة